كل امرئ وما خلق له

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

عرفت شاباً حفيت قدماه من السعي حتى فاز « بوعد » بأن يستخدم « ساعياً » أو نحو ذلك بعد أن يقر البرلمان ميزانية الدولة . ووافق البرلمان عليها وأصبحت معمولاً بها وراح صاحبنا يستنجز الوعد ويستعجل التعيين فلم يجد إلا مطاولة وإخلافاً ، فمل ذلك وجاءني يوماً وذكر لي جيرة أهله لنا في بعض ما مضى ورجا أن أدله على وسيلة تبلغه ما يريد . فقلت له يا أخي : أما الحكومة فلا صلة لي بها ، وأنا أراك لا تستنكف أن تعمل فيها عمل الخدم وإن كنت شاباً متعلماً ، فاذا كان هذا هكذا فما أظن أن الدنيا تضيق بك في غير الحكومة ولن تعدم عملاً في شركة أو متجر أو ما أشبه ذلك . ولم أزل به حتى صرفته عن الحكومة ، فمضى عني وفي نيته أن يلتمس الرزق من العمل الحر . ولم يكد يفعل حتى ساورتني الوساوس ، فقد رأيته شاباً حيياً طيب القلب سليم النية مستقيم الفطرة لا يكاد يعرف عن الدنيا شيئاً ؛ ومثل هذا خليق أن يغرق في محيطها الطامي ، ولكني لم أكن أستطيع أن أصلح ما اعتقدت أني أفسدت ، لأني لا أعرف أين يسكن حتى كنت ألحق به وأمحو ما وقر في نفسه من كلامي . ولم يعد هو إلى بعد ذلك فذهب كل أمل ، فجعلت ألوم نفسي وأوسعها تقريعاً وتأنيباً ، ثم شغلتني الحياة فنسيته

ومضت شهور لا أراه ولا أسمع به — وأعترف فأقول : ولا يرد له ذكر على بالي . وجاء الصيف واحتجت أن أقضي بضعة أيام في الأسكندرية فنزلت في فندق جديد على البحر عند شاطىء « ستانلي » ، فاتفق يوماً أني خرجت أتعشى فعدت متعباً فقلت أستلقي على السرير فخلعت وأخرجت سيجارة احتجت لأشعالها أن أنهض قليلاً لأمد يدي إلى الكبريت ، وكان على منضدة صغيرة قريبة من السرير ، فما راعني إلا حذاءان ضخمان لا حق لمخلوق في أن يكون له مثل ما فيهما من القدمين ، ففزعت ثم تذكرت أن الذي يختبئ تحت السرير يكون هو الخائف الفزع ، فرأى أن أطمئن قليلاً ، فقمت وقعدت على كرسي ودعوت صاحب القدمين الكبيرتين أن يخرج بالعفو عنه ، فخرج القهقرى — أعني أن الساقين ظهرتا أولاً ثم الجزع ثم الكتفان ثم الدماغ . وبعد أن خرج هذا كله رفع صاحبه وجهه إلى فاذا هو الشاب الذي غاب وانقطعت أخباره عني فصحت به : « حامد ؟ ماذا جاء بك إلى هنا ؟ »

وكان الواجب أن ينهض وينفض التراب ويشرح لي الأمر ويفسر لي كيف دس نفسه تحت سريري ، ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا كله بل بقي قاعداً على ركبتيه وراحتيه فضحكت وقلت له : « أظن أن على أنفك شيئاً من التراب »

فقال : « صحيح ؟ » وشرع يمسحه بكفه

فقلت وقد سرني المنظر : « وهل تظن أني أكذب عليك في أمر مهم كهذا ؟ . ولكنك حين مسحت أنفك وضعت على وجهك نحو طن من التراب لأن يدك كما لا أحتاج أن أنبهك غير نظيفة »

فاتكأ على كف ورفع كفه الأخرى إلى عينه لينظر وقال : « صحيح »

فقلت : « أظن أن هنا حوضاً وماء ففي وسعك أن تغتسل وتعود نظيفاً كما كنت . . . وبعد ذلك نستطيع أن نتفاهم »

فغسل وجهه ورأسه وسرح شعره ، ونفض التراب عن ثيابه ثم التفت إليّ وقال : « الحقيقة أن الرقاد تحت السرير حماقة »

فقلت : هذا يردنا إلى الموضوع ، فلماذا كنت راقداً تحت سريري ؟! وماذا جاء بك إلى هنا على كل حال ؟ »

فقال : « تحت السرير ؟ أنا ؟ ... آه »

فقلت : « نعم . تحت السرير . . . . . هذا سرير ؟ أليس كذلك ؟ اتفقنا إذن ! وأنت كنت تحته ... فاذا كنت تصنع تحته ... أعني تحت هذا السرير ؟ سريري أنا .. ؟ »

فقال : « أهي غرفتك ؟ »

قلت : « ليس اسمي مكتوبا عليها لا بأحرف من نور ولا بالطباشير ولا بالدهان ، ولكني أظن صاحب الفندق يشهد بأنها غرفتي إذا شئت أن تسأله . . . . على كل حال يمكنك أن تصدقني وتكتفي بما أقول »

فقال : « طبعاً ... طبعاً ... لا شك ... لا شك »

فراقني هذا جداً ، وأدركني العطف على هذا الشاب الذي قذفت به نصيحتي في عباب حياة لا قبل له به ، وقلت « الآن نعود — إذا سمحت — إلى السؤال » فقال : « لقد كنت أظنها خالية .... وخطر لي أن خير ما أفعل هو أن أرقد تحت السرير »

فقلت : « الأمزجة تختلف ، ولكن ألا تقول لي لماذا رأيت هذا خير ما يمكن أن تصنع ؟ أو فلنبدأ من البداية .... ماذا جاء بك إلى الاسكندرية ؟ »

قال : « هذه قصة طويلة ... »

قلت : « إني رجل واسع الصدر .. ومع ذلك ، في وسعك أن تحذف قصة ميلادك وطفولتك ، وأن تقفز إلى ما بعد اليوم الذي زرتني فيه »

قال : « لقد عملت بنصيحتك »

قلت : ظاهر .... ولكني — على قدر ما أذكر ، فان ذاكرتي ضعيفة كما تعلم أو لا تعلم ، — لم أوصك بالتسلل إلى الغرف التي تظنها خالية وإن كانت فيها حقيبة كبيرة وثياب معلقة ، ولا بالنوم تحت أسرة الناس »

قال : « لا لا لا . لست أعني هذا . إني آسف لازعاجك »

قلت : « استغفر الله ... بل آنستني ... البيت بيتك ... أعني الفندق .. نعم ؟ »

قال : « خطر لي أن أهرب من مصر »

قلت : « هل ارتكبت جريمة ؟ »

قال : « لا لا ... أعوذ بالله ! إنما أعني أن الناس يعرفونني في مصر وقد أخجل أن يروني أزاول عملاً غير لائق ... »

قلت : « صحيح ... مصر صغيرة جداً ... ليس فيها إلا مليون وربع مليون من الناس ... ومثلك لا يمكن إلا أن يبرز جداً في مثل هذا العدد الضئيل .... معك حق ... وإلى أين ذهبت ؟ »

قال : « جئت إلى الاسكندرية ... لا يعرفني فيها أحد ... وبدأت بأن صرت أبيع أوراق « اليانصيب » ولكن الناس كانوا يستريبون بي لأني ألبس بذلة ، ويشترون من الصعيدي لابس الجلابية ... لا أدري لماذا ؟ فتركت هذا وعملت خادماً في مطعم ... لم أبق فيه سوى أسبوع واحد ... الحقيقة أني لا أدري كيف يستطيع أن يحمل المرء كل هذه الصحون واللاعق ولا يكسر منها شيئاً ... »

قلت : « هل كسرت الصحون ، وحطمت الأواني ؟ »

قال : « لم أكسرها ، إنما كانت هي تسقط مني »

قلت : « هذه مسألة دقيقة جداً . فلنقف عندها قليلاً ... إنها تذكرني بابني ... كان مني يوم زرتني ، فلا شك أنك تعرفه »

فقال وقد أضاء السرور والاعجاب وجهه : « أكان هذا ابنك ؟ »

قلت : « لا يزال ابني على الرغم من كل شيء »

قال : « ما شاء الله ... »

قلت : « أشكرك ... وأعود فأقول إن بائع تين مر ببيتنا يوماً فوزن لنا أقة ، فأخذها منه الصبي — أعني ابني فقد كان صبياً صغيراً كما لا بد أن تعرف — وأكل منها تينات في طريقه الينا ... بلعها بلا مضغ على ما أظن ، فقد كانت المسافة أقصر من أن تسمح بالأكل الصحيح — أعني الصحي .... المضغ اثنتين وثلاثين مرة إلى آخره — فلم يعجبنا التين ، فأعدناه إلى صاحبه ، ولا أدري كيف عرف ، ولكنه تبين أن التين أنقص مما كان ، فسألنا الغلام ، فقال إنه لم يأخذ شيئا ، ولكن التين كان يثب من الطبق إلى فمه ... فهذا من ذاك ياصاحبي ! ثم ماذا أيضاً بعد أن طردت من المطعم ... لا بد أن تكون طردت ... أم تراك قدمت استقالة مسببة ذكرت فيها أنك لا تستطيع أن تعمل مع هذه الصحون والأطباق اللعينة التي تأبى إلا أن تماحكك وتحاورك وتنافلك وتسقط من يدك ؟ »

فتمتم قليلاً ثم قال إنه اشتغل بائعاً للبن الزبادي — اليغورت كما يسمى في أحياء الرمل — فضحكت وقلت : لابد أن تكون قد عانيت من سلاطين اللبن مثل ما عانيت من صحون المطعم ... الطبيعة واحدة ، ولست أحتاج منك إلى بيان ما حدث ، فأني أعرف روح هذه المادة التي تصنع منها الصحون والسلاطين »

فقال بلهجة الجد المضحك : « الحقيقة أنه أمر غريب .. لقد كان يخيل إلي أن شيئا فوق رأسي يحرك الطبلية ويميلها فتتسابق السلاطين الى الأرض »

قلت : « معقول .... معقول .... شيطنة معهودة من

كل ما يصنع من هذه المـادة المكهربة »

ولا أطيل ، فما أردت من إثبات هـذا الحوار إلا أن يرى القارىء مبلغ سذاجة هذا الشاب وبراءة نفسه وطيب خيمها ، وقد علمت منه أنه يشتغل ، خادما أو « ساعياً » عند قصاب ، وأنه جاء الى الفندق — كما يفعل اليوم — بمقدار اللحم المطلوب فوضعه قرب باب المطبخ قبل أن يسلمه الى رجال الفنـدق ، ووقف يحادث اللبان ، فجاء كلبان ضخمان وأعملا أسنانهما فى اللحم ، وأقبلت القطط — لا يدرى من أين — فاختطفت ما بقى ؛ وظهر صاحب الفندق ، فذهب صاحبنا يعـدو ، بلا عقل ، فاذا به يرى نفسـه بين الغرف ، وكان اليوم يوم أحد ، وليس عليه بعد ذلك عمل ، وقد قبض أجره الأسبوعى ، فرأى أن يرتدى بذلته ، ليتسنى له بعد أن يسلم الرسالة أن يخرج للرياضة والتنزه من غير أن يحتاج أن يعود الى غرفته فى « المـكس » . والتقى فى طريقه بين الغرف بأحد النازلين فى الفندق خارجا من غرفته ، فخاف ودخل غرفتى فألفاها خالية ، فدس نفسه تحت السرير ، بلا تفكير ، حتى أخرجته . . .

فسألته : « ألا يمكن أن يكون هناك عمل تصلح له ، ويصلح لك . . . كالحلاقة مثلاً ؟ »

فحدق فى وجهى مستغرباً وقال « إيه .. أعنى .. معذرة .. »

قلت : « لا بأس ... أردت أن أقول ألا يمكن أن تكون شيخ طريقة مثلاً ؟ ؟ ، ولـكن هذا يحتاج الى ذكاء وحـذق وبراعة وجرأة . . ولاشك أنك ذكى حاذق ، وشجاع وبارع ، ولـكن الأمر يحتاج إلى ضرب آخر من هذه المزايا ، فقل لى .. لابد أن يكون هناك شيء تتقنه . . . فاذا هو ؟ فكر ... اقدح زناد هذا الفكر . . . أرنا همتك . . . »

فأطرق مليا ثم قال : « لو كان عندى رأس مال لاقتنيت غيّـة . . . ولـكن . . . »

فقلت : « هل سمعتك تقول « غيّـة » ؟ »

قال : « نعم ... غية ... »

قلت : « مفهوم ، ولـكن ألا يمكن أن تجعلها أسهل . . . . أعنى أن تفسرها ؟ » قال : « غيّـة ... ألا تعرفها ؟ »

قلت : « لا بد أن أكون أعرفها ... ولـكن ينقصنى أن أعرف ماذا هى ؟ فماذا هى ؟ » قال : « الغيّـة هى ... هى الغية »

قلت : « هذا أحسن ... »

قال : « تعرف ماأعنى ... الحمام ... تبنى له بيتاً من الخشب فوق السطح ، وتعنى به »

ففهمت وسألته « ولـكن هل هذا عمل يربح منه الانسان ، أم هو تسلية فقط ؟ » قال : « لست أثنى على نفسى ، ولـكنى لو وجدت المال اللازم أستطيع أن أستولده ... »

قلت : « تستولد المال ؟ »

قال : « لا لا . . . الحمام . . . أربيه وأستولده . . . وأبيع منه . . . عمل رابح جداً » فخطر لى أن لعله صادق ، وأن هذا شيء يحسنه ، فسألته عما يحتاج إليه من المال فقال : إنه يدخر نحو جنيهين ، وأنه يستطيع أن يقترض من أهله نحو عشرة ، ولـكنه ينقصه مثل هـذا القدر للبناء وشراء الحمام اللازم ، فاقترحت عليه أن نجعلها شركة مساهمة فانطلق يحدثنى عن الحمام وطباعه ومزاياه ، ويصف لى أنواعه ويذكر لى أسماء لم أسمع بها من قبل ، فاطمأن قلبى وأيقنت أنه اهتدى إلى ما يحسن ، وعدت به إلى القاهرة وجمعت له من اخوان لى ما يكفى « لمشروعه »

ولم أكن أظن أن الحمام تجارة رابحة ، ولـكنه بعد عام واحد استطاع أن يرد ما اقترض من أهله ومنا ، وأن يخبرنى أنه موفق ، وأنه يعيش عيشة راضية ، لا ترف فيها ولا بذخ ، ولـكنها — على كونها عيشة كفاف — هى التى كان يصبو إليها ، لفرط حبه لهذا الطير ....

فلا يزال صحيحاً أن المرء ميسر لما خلق له

ابراهيم عبد القادر المازنى

ظهر حديثاً كتاب

فى أصول الأدب.

صفحات من الأدب الحى والآراء الجديدة

بقلم أحمد حسن الزيات

يطلب من إدارة « الرسالة » ومن جميع المكاتب

وثمنه ١٢ قرشا عدا أجرة البريد